

بداية الحكاية ونهايتها

د. محمد عبد العزيز ربيع

وصلت الكويت في سبتمبر 1970 قادما من أمريكا، وذلك للعمل في جامعة الكويت بعد أن توقفت في الأردن لزيارة الأهل والأصدقاء. وأثناء وجودي في عمان وقعت أحداث سبتمبر الدامية بين الجيش الأردني وفصائل المقاومة الفلسطينية والتي ذهب ضحيتها آلاف الضحايا من الأبرياء من الجانبين، وانتهت بخروج المقاومة الفلسطينية من الأردن إلى لبنان وغيرها من دول عربية.

بعد انخراطي في التدريس بأشهر، بدأ هناك جدل حاد بين المؤيدين والمعارضين لفكرة إقامة دولة فلسطينية في الأراضي التي احتلتها إسرائيل في عام 1967، وكانت صفحات جريدة الرأي العام الكويتية مسرحا لذلك الجدل. وبالرغم من حدة النقاش وجدته، لم يطرح أي طرف من الأطراف دوافع ما كان يجري بينه وبين الغير من صراع سياسي. ولقد حاولت أن استشف منبع الفكرة، وتحديد هوية من كان وراءها، والتعرف على أهدافها الحقيقية، إلا أنني لم أوفق. وحين استعرضت مواقف الأطراف الدولية التي كانت تتمتع بقدرة حقيقية على الإسهام في تحقيق تلك الفكرة، لم أجد أي طرف له مصلحة في إقامة دولة فلسطينية في حينه، أو كان معني بالبحث في ذلك الموضوع. لذلك لم يكن باستطاعتي الوقوف إلى جانب المؤيدين أو المعارضين، لأن الحوار في نظري كان يدور حول افتراض غير مطروح أصلا.

وانطلاقا من تلك القناعة، قمت بكتابة ثلاثة مقالات، كانت الأولى عن الحركة الصهيونية ومطامعها في المنطقة العربية، والثانية عن سياسة أمريكا الشرق أوسطية وموقفها الداعم لإسرائيل والمعادي للتطلعات العربية بوجه عام، والثالثة عن سياسة الاتحاد السوفيتي ومطامعه منذ الدولة القيصريّة في الحصول على موطئ قدم على شواطئ الخليج الدافئة. وكان الهدف من تلك المقالات إثبات أن الأطراف الأكثر قدرة على تحديد مسار الصراع العربي - الإسرائيلي لم تكن معنية بإقامة دولة فلسطينية، كما لم تكن على استعداد لطرح تلك الفكرة ومتابعتها والعمل على تحقيقها. وبعد أن استكملت كتابة المقالات، اتصلت بجريدة الرأي العام، وطلبت تحديد موعد مع مدير التحرير.

حددوا لي موعدا في الساعة العاشرة ليلا. كان الوقت متأخرا بالنسبة لي، إلا أنني لم أعترض لمعرفةتي بأوقات عمل المحررين ومدراء التحرير. ودون مقدمات، وجدت نفسي أتبادل مع الأستاذ إلياس مسوح، الصحفي القدير، والإنسان الخلق، والعربي الملتزم بعروبتنه، مختلف الآراء والمعلومات عما كان يدور في وطننا الكبير من أحداث، خاصة عما كان قد جرى في الأردن، وعما كان يحاك ضد وطننا من مؤامرات من قبل اللوبي الصهيوني وأنصار إسرائيل في أمريكا. ولقد تطرق الحديث بالطبع إلى ما كان يجري على صفحات الجريدة من جدل حول فكرة إقامة دولة فلسطينية. شرحت له رأيي في الموضوع، وطبيعة المقالات التي كتبتها، والهدف منها، وقدمتها له قائلا: إذا كانت تصلح للنشر، أرجو أن تنشرها، وإذا لم تكن صالحة فيمكنك أن ترمي بها في سلة المهملات. وحين تركت مكتبه، كانت الساعة قد قاربت منتصف الليل.

وفي صباح اليوم التالي، كانت مفاجئتي كبيرة حين اتصل مكتب مدير الجامعة ليثني على المقال المنشور في الجريدة ويشكرني عليه. ولقد تبع ذلك المقال نشر المقالين الآخرين في اليومين التاليين. وبعدها تتالت الاتصالات التي كانت تكيل المديح لما كتبت، خاصة بالنسبة للمقال الثالث المتعلق بسياسة الاتحاد السوفيتي تجاه المنطقة عموما، ومنطقة الخليج العربي خصوصا، حيث قال أحد أساتذة التاريخ بأن ذلك المقال كان أفضل ما قرأ عن ذلك الموضوع. وفي ضوء ذلك الإطراء والمديح، وجدت نفسي أكتب مقالا أسبوعيا، كان يتوقف كل بضعة سنوات لمدة أسابيع قليلة، ليعاود تجديد نفسه والظهور أحيانا في جريدة أخرى.

كانت الجرائد التي استضافت أكبر عدد من مقالاتي هي الدستور الأردنية، والوطن الكويتية، والبيان الإماراتية، والخليج الإماراتية، والصبح التونسية. وبعد ذلك تجيء جريدة الرأي العام الكويتية، والرأي الأردنية، والقدس المقدسية، والقدس اللندنية، والإتحاد الإماراتية، والحياة اللندنية. كما أن مقالاتي ومراجعات الكتب التي نشرتها بكثرة وجدت طريقها أيضا إلى السعودية، ومصر وقطر، وأمريكا، والمغرب، وغيرها من دول وفي تقديري، كتبت منذ بداية الكتابة في الرأي العام الكويتية سنة 1970 وحتى الآن حوالي 1500 مقالا، تعرضت فيها لقضايا سياسية، واقتصادية، وثقافية، وتعليمية، ومعرفية، واجتماعية، لا زلت احتفظ بحوالي ثلثها تقريبا.

لكن الحماس للقراءة الذي لازم جيلنا في الستينات والسبعينات سرعان ما خبا كثيرا في ضوء التحول لممارسة الأعمال التجارية والمالية والانغماس في جمع المال وتكوين الثروات، مما جعل الكاتب من أمثالي يفتقد العائد المعنوي المناسب. وبالرغم من أن القراء العاديين من أبناء الخليج عامة، والكويت والإمارات خاصة، لا زالوا يواظبون على القراءة، فإن الإقبال على القراءة في بلاد مثل الأردن ومصر والمغرب وسوريا تراجع كثيرا. وربما كانت تلك البلاد، إذا ما قيست نسبة القراء فيها إلى خريجي المدارس والجامعات، أقل شعوب الأرض قراءة عبر التاريخ.

الآن وبعد 37 من الكتابة في الجرائد، أود أن أعلن اعتزالي هذا النوع من الكتابة، وأشكر كل الجرائد العربية التي أتاحت لي الفرصة للنشر فيها على مدى تلك السنين. إلا هذا لا يعني إطلاقا أنني سوف أتوقف عن الكتابة.. إن لدي عشرات الدراسات التي كتبتها ولم أنشرها في الماضي وتحتاج إلى بعض التعديل والتحديث، والكثير الكثير من الأفكار والخواطر التي تستغيث طالبة مني الانتباه إليها.. دراسات وأفكار بحاجة لصقل ونشر قبل أن يغمرها غبار النسيان.

إنني اعتقد، وكما كنت أقول دوما لطلبتي وأولادي وأصدقائي، أن أكثر الناس حظا في الدنيا هم من وهبهم الله حب القراءة والقدرة على الكتابة.. إن من يحب الكتابة يحب القراءة أيضا، ومن يحب القراءة والكتابة لا يشيخ أبدا.. سيبقى عقله نشطا وخلاقا ومبدعا حتى آخر رفق، وستبقى ذكراه تماثلا شامخا بعد وفاته لعشرات، وربما لآلاف السنين. وعلى من يريد متابعة كتاباتي، والتعرف على أفكارني، وسماع حكاياتي عما صادفني وعما قمت به خلال رحلة حياتية مليئة بالإثارة، أن يزور موقعي الإلكتروني بين الحين والآخر.. لقد وعدت زوار الموقع بشيء جديد كل أسبوع، قصيدة، خاطرة، جزء من رواية أو من كتاب، كما أنني سأبدأ في كتابة سيرتي الذاتية قبل نهاية العام الحالي.

شكرا مرة أخرى، بل ألف شكر لكل من قرأ لي حرفا، ولكل من نشر لي جملة، ولكل من استشهد بكلمة من كلماتي في دراسة أو في حديث أو في محاضرة.

د. محمد عبد العزيز ربيع professorrabie@yahoo.com
www.yazour.com